# الحملة الأوروبية على أمركة الثقافة

شنت النائبة الإيطالية لوتشيانا كاستلينا رئيسة اللجنة الثقافية في البرلمان الأوروبي حملة ضد ما أسمته أمركة الثقافة. وكانت تمهد بذلك للتصويت الذي سيجريه البرلمان حول فرض قيود أشد على الأفلام الأمريكية التي تعرض في التلفزيونات الأوروبية بعد أن شعر البرلمان بأن حكومات الاتحاد الأوروبي خذلته لأنها أفصحت عن نيّتها عدم وضع قيود على هذه الصناعة الأمريكية الأكثر رواجاً لأنها تخشى حرباً تجارية مع واشنطن.

جاء في تقرير هذه اللجنة على لسان رئيستها المذكورة: «إن الثقافة يجب ألا تترك لقوى السوق ولا أن تعامل كسلعة عادية مثل البطاطس والغسّالات الكهربائية. وإن الناس لهم الحق في الاختيار وألا يكونوا عرضة لقمع قوة احتكارية مثل هوليوود» وأضافت: «إن هذه الهيمنة ستحرم أطفال العالم من خيالاتهم وصورهم وأبطالهم وسوف يشعرون بعزلة كاملة. وحين يصبح المرء معزولاً يصير عرضة لأن يتصرف في مجتمعه بلا مبالاة».

## ١

تمثل هذه الحملة أحدث المحاولات الأوروبية للوقوف في

وجه الزحف الثقافي الأمريكي المتمثل على وجه الخصوص في الأفلام الأمريكية التي باتت تعرض في التلفزيونات الأوروبية بنسبة ستة من عشرة، وفي قاعاتها السينمائية بنسبة ثمانية من عشرة. والتي تعكس الثقافة الأمريكية والحياة الأمريكية بزينتها وأضوائها و«خيلها» ورَجِلِها وقيمها وصورها وخيالاتها وأبطالها.. ومن خلال أقوى تقنيات العرض والتأثير، وأشدها سلطاناً على السمع والبصر والعقل والخيال. أو إلى الدرجة التي تترك أطفال العالم في عزلة حقيقية عن مجتمعاتهم وتاريخهم وأبطالهم، بل إلى الدرجة التي تحاصرهم وتغتال خيالاتهم كما لاحظت النائبة في البرلمان الأوروبي. وما يتبع ذلك ويبنى عليه من السلبية واللامبالاة على أقل تقدير.

يحصل هذا التخوف أو التحذير ودق ناقوس الخطر في أوروبا علماً بأن النسيج الثقافي الأوروبي والأمريكي واحد أو مشترك، وربما أمكننا وصف الثقافة الأمريكية في هذا السياق أو بصورة عامة بأنها النسخة المنقحة للثقافة الأوروبية، لأن التربة – والتربية – والجذور والدين ومجموعة التصورات والقيم، وخصوصاً تلك التي انحدرت إليهم من عصر النهضة ومن الثورة الصناعية والعصر الاستعماري واحدة أو مشتركة.

وإذا كان الشاعر والناقد والفيلسوف «ت.س.إليوت» قد تحدث منذ أكثر من نصف قرن عما أسماه: «وحدة الثقافة الأوروبية» من منطلق وحدة الدين، وعلى أساس قناعته التامة

بأن الحضارة الأوروبية حضارة مسيحية – على الرغم من تعدد اللغات والقوميات المعهودة في أوروبا، وما أذكت من حروب ومنافسات في تاريخها الطويل –فإن في وسعنا أن نضيف إليه اليوم حديثنا عن وحدة الثقافة الأوروبية الأمريكية. ولا يخامرنا شك في وحدة هذه الثقافة التي يمكننا وصفها بالأطلسية، أو بعبارة أدق: بالثقافة المتوسطية الأطلسية بعد هذا العبور التاريخي الذي حققته الحضارة الأوروبية باتجاه الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الجديد.

وإذا كان من فرق يمكن أن نشير إليه في سياق الحديث عن أمركة الثقافة التي تخشاها أوروبا أو في الثقافة الأمريكية التي تشيعها أفلام هوليوود على وجه الخصوص، فهو الإشارة إلى الأثر اليهودي البارز في هذه الثقافة أو الصناعة، أو الطابع اليهودي الصهيوني الذي بات يطبعها بشكل سافر. وإذا كان من تحصيل الحاصل أن نقول إن هذا الطابع لم تخل منه أو لم تتخل عنه الثقافة الأوروبية، فإنه في الثقافة الأمريكية أو في الشق الأطلسي من الثقافة الغربية آخذ في الرسوخ والتمكن والاستعلاء من خلال أفلام هوليوود وسائر ما يتصل بها ويضاف إليها من وسائل الإعلام المختلفة من صحافة وإذاعات ووكالات أنباء ومحطات تلفزيونية وقنوات فضائية.. في حين أنه في الثقافة الأوروبية كاد يستنفد أغراضه عبر المراجعة والتراجع الذي تم في محيط كبرى الآراء والنظريات – في

نهايات هذا القرن – التي شكلت ملامح هذه الثقافة في حقولها المختلفة كالاقتصاد والنفس والاجتماع والتربية والمعرفة. وبعض هذه التراجعات أمريكي على كل حال. والذي يمكننا ملاحظته في هذا السياق أن الفكر اليهودي بوجه عام لم يعد يشكل أكثر من عنصر أو رافد للثقافة الأوروبية، أو للثقافة الغربية في جانبها المتوسطي إن صح التعبير.

وعلى أية حال فإن الأوروبيين بدأوا يرفضون أو يستشعرون البُغضة لأمركة الثقافة الأوروبية أو لأمركة أوروبا، الأمر الذي عدّه بعضهم مقدمة لأمركة العالم. وبغض النظر عما إذا كان هذا الرفض ينطوي على درجةٍ ما من درجات الرفض لتهويد الثقافة أم لا.

## ٢

والأمر الذي يعنينا معشر العرب والمسلمين هو موقفنا نحن من هذه الأمركة أو هذا التهويد، علماً بأن الأمر في هذه الحال أخطر بكثير جداً من موقف الأوروبيين من أمركة ثقافتهم!! نظراً للاختلاف الجذري بين الثقافتين العربية الإسلامية والأوروبية الأمريكية المسيحية العلمانية، من جهة. ونظراً للخطر المحدق الذي بات يهدد ثقافتنا العربية الإسلامية أمام هذا الطوفان الإعلامي الأمريكي، من جهة أخرى.

ألا يحملنا موقف البرلمان الأوروبي من أمركة الثقافة على أن نعيد النظر في موقفنا نحن من الثقافة الغربية بجملة خصائصها

ومعطياتها، وأن نحاول إعادة ترتيب بيتنا الثقافي من جديد؟ والمشكلات التي تثيرها هذه المحاولة كثيرة ليس أقلها الانصياع الثقافي – كما يمكن أن ندعوه – الذي وقعنا فيه في موقفنا من الحضارة الغربية وتعاملنا مع ثقافتها وعلومها الإنسانية والاجتماعية. فضلاً عن ألوان أخرى من التبعية والانصياع في السياسة والاقتصاد لا علاقة لنا بها في هذا السياق.

ويكفي أن نشير في تعليقنا على موقف البرلمان الأوروبي إلى أننا لا نملك برلماناً واحداً أو اتحاداً عربياً مماثلاً لما باتت تملكه الدول الأوروبية في برلمانها وسوقها المشتركة وكافة مؤسساتها الواحدة.

ومع ذلك فلا أعتقد أنها ستكون قانعة بما حققته في هذا الاتجاه حتى الآن، بل ستبقى آخذة في تطوير برلمانها وزيادة فاعلية مؤسساتها حتى تقترب في نهاية المطاف – أو تصل – إلى عصر الولايات المتحدة الأوروبية!

وقد نتذكر هنا أن عندنا شيئاً اسمه اتحاد البرلمانات العربية، وربما سمعنا به في بعض المناسبات والمواسم، ولكننا لا نعلم له دوراً مماثلاً للبرلمان الأوروبي، وربما لم يكن له دور يذكر إذا كانت برلمانات الدول الممثلة في هذا الاتحاد احتفالية أو مظهرية ولا تعبر في الغالب عن الشعوب ولكن عن الأنظمة. وربما كان لبعضها دور في تكريس جميع أنواع الانصياع التي أشرنا إليها بدلاً من مقاومتها أو التحذير منها. ولهذا فإن المرء لا يطمع في

أن يجد في اتحاد البرلمانات العربية لجنة مماثلة أو مشابهة للجنة الثقافية في البرلمان الأوروبي – المنتخب بدوره بطريق مباشر ولا علاقة له ببرلمانات الدول الأعضاء – وإذا وجدت مثل هذه اللجنة فلا يبدو لنا أنها سوف تستشعر الخطر من أمركة الثقافة العربية أو من تهويدها. وربما هدتها حواسُّها وقرونُ استشعارها إلى تحسس الخطر من أمور أخرى أهمّ في نظرهم من الثقافة بكثير!!

والواقع أن هذه المشكلة تطرح السؤال التالي: هل يسلّم مثقفونا – قبل سياسيّينا – بأن لنا ثقافة عربية إسلامية تستحق أن نحميها ونذود عن حياضها، لأنها تعبر عن ذاتيتنا وشخصيتنا وملامحنا المميزة من جهة، ولأنه يقع على عاتقها حماية أجيالنا من الأوربة والأمركة والتهويد والضياع، من جهة أخرى؟ ونقول في الإجابة عن هذا السؤال: إن اختيارنا للنموذج الثقافي الغربي وتبشيرنا بقيم الغرب الحضارية لا يدل على ذلك، بل يدل على مدى وقوعنا في إسار «التأورب» والتغرب تحت عنوان المعاصرة والحداثة ومحاولة اللحاق بركب الأمم المتمدنة أو المتحضرة! الأمر الذي أفضى بنا إلى الفصل في واقع حياتنا بين الدين ونظام الحياة، وهذه هي خلاصة النموذج الثقافي الغربي العلماني الذي وقع اختيارنا عليه، أو الذي فرض علينا أيام الاستعمار السياسي والاحتلال العسكري، ثم بتنا نطلبه ونكرّسه بين ظهرانينا بقوة الاقتناع أو الانصياع الذي

أشرنا إليه.

## ٣

لقد أطلقنا على عصر التبعية والانصياع هذا الذي استمر لعقود طويلة خلت عصر النهضة أو عصر التنور! واحتفلنا فيه بكل محاولات الزراية بالفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية، بل بكل محاولات النقد والتطاول على أسس الثقافة العربية الإسلامية وثوابتها ومقوماتها. وقام هذا العصر بجملته على التبشير بالأفكار والمقولات الأوروبية التي قادتهم إلى عصر النهضة، من جهة. وعلى ترداد مقولات المبشرين والمستشرقين عن الإسلام والقرآن والحضارة الإسلامية من جهة أخرى.

وغني عن البيان أننا تقلَّبنا في هذا العصر من حتمية إلى أخرى، ولهذا فإن في وسعنا أن نسمّيه عصر المترجمات والمنقولات والحتميات. انتقلنا فيه من حتمية الثقافة الرأسمالية التي ارتبطت بالاستعمار والاحتلال، إلى حتمية الثقافة الاشتراكية التي واكبت عصر الحرية والاستقلال، لأننا ونحن نعيش في إسار الحضارة الأوروبية والفكر الغربي لم نكن نرى أو نعي غير نمطين من أنماط الثقافة والتنمية، فإذا بطل أحدهما أضحى المصير إلى الثاني حتمياً لا رجعة فيه!

وحين لم نحصد من وراء ذلك كله سوى الهزائم المتلاحقة والعد التنازلي وتكريس التخلف، بدأنا بعد هزيمة ١٩٦٧ مرحلة العودة إلى الذات أو مرحلة إعادة اكتشافها من جديد.

وبدأت محاولاتنا الجادة داخل أسوار الجامعات وخارجها في بلورة ثقافة عربية إسلامية معاصرة يجري بناؤها – فيما نلاحظ – من خلال ثوابت الأمة المتمثلة في الكتاب والسنّة بوصفهما خارجين من نطاق الزمان وتُخاطَب بهما من ثم جميع الأجيال. وفي ضوء تراثنا الثقافي أي معارف المجتمعات الإسلامية السابقة وما يمكن أن يواكب منها هذا العصر على أقل تقدير. وأخيراً في ضوء الثقافة الغربية ذاتها للإفادة من ميادين البحث المتشعبة ومناهجه المتعددة، بعيداً عن مناخ الانبهار والشعور بالهوان على النفس الذي بلغ حد الانصياع الثقافي أو أفضى في السابق إليه.

وما راعنا ونحن نعيش هذه المرحلة الجادة منذ أكثر من ربع قرن في إعادة البناء، أو إعادة ترتيب بيتنا الثقافي وفق هندستنا وأغراضنا وخصائص شخصيتنا الضاربة في أعماق التاريخ – على ما يكتنفها هذه الأيام من أخطاء في التصور أو هفوات في الممارسة – ما راعنا إلا ونفر من مثقفينا عادوا ليُجَدّدوا هجومهم الأخرق على القرآن وعلى سائر ثوابتنا الفكرية والثقافية، تحت العنوان السابق الكاذب: «التنور» وذلك بإعادة طبع كتب تلك المرحلة أو إعادة إنتاج أفكارها من جديد، يمهدون بذلك فيما نعتقد لأسوأ صور الأوربة والأمركة مرة أخرى، بدلاً من التعفية على تلك المرحلة والتخلص من رواسبها وآثارها.

وما راعنا كذلك إلا ونفر غير قليل من سياسيّينا بدأوا محاولة ربط الدعوة إلى الإسلام وشريعته وثقافته – أياً كانت سمات هذه الدعوة وميادينها – بالإرهاب والتطرف. وتفصيل القول في هذا كله يحتاج إلى مقالات كثيرة أخرى. ولكننا نخشى أن نرتدّ من عصر محاولة التحصين الثقافي إلى عصر الانصياع الثقافي، وأن نعود أمة مخترقة يحاول سياسيّوها إغماد سيوفها، ويحاول «مثقفوها» كسر أقلامها. والله المستعان.

obeikandl.com